خطاب الرئيس
اختتام سنة اليوبيل الفضِّيِّ للجامعة الأنطونيَّة
الأب ميشال جلخ

الذكرى السنويَّة السادسة والعشرون لتأسيس الجامعة
عيد سيِّدة الزروع
١٥ أيّار ٢٠٢٢

أعضاء الهيئة التعليميَّة والإداريَّة الكِرام،

الطلاب الأعزّاء،

أيُّها الأحبّاء،

لطالما سمعتموني أكرِّر منذ انفجار أزماتنا، بل بالأحرى منذ بلوغ أزماتنا المزمنة درجة الالتهاب، أنَّه لم يعد بالإمكان النظر إلى المناسبات المؤسَّسيَّة كمجرَّد احتفالات، بل كمُحفِّزات للعودة إلى الذات، لمساءلتها، وللتأمُّل في ما آلت إليه أوضاعنا، وفي ما علينا أن نقوم به إزاءها.

وها أنا أكرِّرها اليوم. بل لعلَّ مناسبة اليوم أكثر حِثًّا على التفكير والتأمُّل من أيِّ مناسبة أخرى. فنحن نختتم اليوم عام الجامعة اليوبيليّ، ونحتفل بِطيِّها ربع قرن من العمل الدؤوب الطموح في خدمة التعليم العالي والبحث العلميِّ والعمل الثقافيِّ والخدمة المجتمعيَّة. تدأب المؤسَّسات في مناسبات كهذه على تعداد إنجازاتها وعرْض مخطَّطاتها التطويريَّة للمستقبل. وقد كان بإمكاننا فعل الشيء نفسه، فعلى الرغم من كلِّ شيء، ما زال في جعبتنا الكثير ممّا قد نفاخر بإنجازه، لكن أظنُّ من واجبنا الأخلاقيّ أن نكسِر ثقافة التعمية وإنكار الواقع. من واجبنا الأخلاقي أن نُقرَّ أنَّه لم يعد بالإمكان الكلام والتصرُّف كما لو أنَّ اقتصادنا لم ينهَر، ومرفأنا لم ينفجرْ، وجنى أعمارنا لم يُنهب، وأنَّ الباب لم يُصفق بوجه أحلام طلّابنا.

من واجبنا الأخلاقيّ، قبل المسارعة إلى أدبيّات الصمود والنهوض والتغلُّب على الصعاب، أن نعترف أنَّنا في أزمةٍ عميقة ونبني على الشيء مقتضاه بدءًا بما نقوله. فالأمانة الأخلاقيَّة تقتضي منّا الاعتراف أنَّ عالمًا بكلِّ مقدَّراته ومعانيه وعناوينه قد انتهى، ولن تنفع الشعارات والطقوس والنبرات العالية بتغيير هذا الواقع.

من موقعنا في الجامعة، نشهد بشكلٍ مرعب النزيف البشريَّ الحادّ الذي يُهدِّد بنية المجتمع وآماله بالنهوض يومًا. من موقعنا في الجامعة نعاين الهبوط الحادّ في المعنويّات الذي جعل اللبنانيين يفتِّشون عن رزقهم خارج بلدهم. من موقعنا في الجامعة نعايش ضيق النفَس الجماعي الذي يكتم كلَّ شيء حتى صرخة النجدة.

ولا مفرَّ من التساؤل: كيف نحتفل باليوبيل في ظروف كهذه؟

لمن منكم لا يعلمون، اليوبيل في التراث المسيحيّ هو السنة المقدَّسة، "سنة الربِّ المقبولة"، ليس لأنَّها تشهد احتفالات وطقوسًا تميِّزها عن سواها من السنوات، بل لأنَّها موعد يُذكِّر بمشروع الله والعمل بموجبه. ومن شأن تزامن يوبيل الجامعة مع أزمات لبنان الكثيرة أن يُعيد تصويب أنظارنا إلى معنى اليوبيل الأصليّ، لنعيشه كدعوة لتذكُّر جوهر الأشياء. من هذه الزاوية، قد يكون سلوكنا اللااحتفاليُّ هذا العام أكثر يوبيليَّة من أيِّ احتفال. فقد

عشنا معًا سنة يوبيليَّة حقيقيَّة، سِمتها الأساسيَّة التكافل والتضامن لتخفيف وطأة الأزمة عن بعضنا البعض. كانت سنة يوبيليَّة حقيقيَّة أخضعنا فيها سَبْت النُظُم للإنسان، سنة أوقفْنا فيها الاهتمام بالمباني والتجهيزات وشؤون مرتا الكثيرة وشجونها لنسهر حصرًا على من هم روح الجامعة التي لا ينبغي أن تُسلب منها.

أيُّها الأحباء،

الأزمة وقت كثيف تُختبر فيه احتمالاتٌ قصوى، فهي تدفعنا خارج مناطق أدائنا العادي، وتجبرنا على التجريب والتحدِّي والمغامرة، كلٌّ في مجاله وعلى مستواه، وفي بعض الأحيان خارج مجاله ومستواه. فعندما يقع النموذج كلُّه في أزمة شاملة، يدخل النظام برمَّته في الإعصار. هي فترة من اللاتوازن، من المطبّات والاهتزازات وانعدام اليقين، تستمرُّ إلى أن يستتبَّ توازن جديد. والتحدِّي، كلُّ التحدِّي، أن نتماسك في فترة الاهتزاز، فنحافظ بعضُنا على بعض، ونجرؤَ على النهوض من الذهول والقنوط لنبني التوازن المقبل، ولِنصنعه أقرب إلى طموحاتنا وقِيمنا، فلا تذهب الأزمة والتضحيات المرتبطة بها هباء، بل تكون فرصة لِبناء مستقبل أكثر عدالة وإنسانيَّة واستدامة.

أن تأتي "سنة الربِّ المقبولة" في عزِّ الأزمة، لهو مؤشِّر على أنَّ بالإمكان الإفادة من الأزمة وتحويلها إلى فرصة، إن نحن عُدنا إلى ذواتنا وساءلنا معرفتنا النسبيَّة وأحكامنا المسبقة، وما تعوَّدنا على فعله وقوله والدفاع عنه، لنرى أنَّ عالمًا آخر ممكنًا، وأنَّ بالإمكان سلوك طريق آخر غير الذي أفضى بنا إلى حيث نحن.

لا يكفي أن نأسف، ولا أن نشتكي، ولا أن نندم. ينبغي أن نتوب. والتوبة تختلف عن الأسف والندم بأمرَين رئيسَين: أوَّلًا بأنها لا تكتفي بالتأفُّف مما آلت إليه الأمور. فالتائب، على عكس الآسِف أو الغاضب، يعترف بذنب له ومسؤولية، وهذا هو الندم. إلّا أنَّ التوبة ليست ندمًا وحسب، لأنَّها إرادة تصحيح ثانيًا. فالتوبة لا تنظر إلى الماضي إلّا لِتبْني المستقبل بشكل أفضل. وإن كنّا اليوم نُحدِّق بأصابعنا المحروقة بما اقترفناه أو تركناهم يقترفونه، فكيما نتذكَّر ألّا نكرِّره. واجبنا اليوم أن نجد في الظلام الحالك الذي يلفُّنا سُبلًا للتلاقي والتفكير معًا للخروج من النفق ولبناء وطن جدير بالحياة.

لماذا لا أحدِّثكم عمّا قمنا به في الجامعة في هذا السياق؟ لأنَّ تلك الطريق هي الأسهل. في الواقع، يمكن لأي مؤسَّسة أن تتَّخذ إجراءات موضعيَّة تخفِّف وطأة الأزمة على أعضائها. ونحن لم نتوان. كلُّ ما من شأنه أن يسكب ولو القليل من البلسم على قلوب أفراد عائلة الجامعة، سنقوم به. لكن ماذا ينفع أن نعيش مكتفين أو مدعومين في مجتمع يئن؟

اليوبيل مناسبة ليتذكَّر كلٌّ منّا ما زرعه يسوع في أعماقنا، أي دعوته لكي يحمل الجميع في محبَّته، فيعطي النائحين، كما يقول آشعيا النبي، "جمالًا بدل الرماد، وزيت فرح بدل النَوح، ورِداء تسبيح بدل الروح اليائسة" (أش ٦١: ٣). لنأخذ على عاتقنا تحقيق وعود الرب، مردِّدين مع السيِّد: "روحُ الرَّبِّ عليَّ، لأَنَّهُ مَسَحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي منكسِري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعُمي بالبصر، وأحرِّر المظلومين، وأكرز بسنة الربِّ المقبولة" (لو ٤: ١٨-١٩).

فلنجعلها سنة يوبيليَّة مقبولة، نضع فيها مجتمعنا على سكَّة الحرِّيَّة والعدالة والفرح والعيش الكريم. فليس اليوبيل زرًّا على سترة، أيُّها الأحباء، بل هو أمر مهمَّة. وأمنيتي أن نبرهن معًا أنّنا أهل لها.

أعاده الله علينا عيدًا مباركًا، ولنخطُ مع سيِّدة الزروع الخطوة الأولى صوب يوبيل جديد للجامعة الأنطونيَّة ملؤه النعمة والسلام!